اللقاء الأول من لقاءات التفسير
في شهر رمضان المبارك من عام 1437هـ

الجزء الثاني: سورة البقرة
الآيات 212– 214

بسم الله الرحمن الرحيم

أخواتي الفاضلات، إليكم سلسلة تفاريغ من دروس أستاذتنا الفاضلة أناهيد السميري حفظها الله، وفّق الله بعض الأخوات لتفريغها، ونسأل الله أن ينفع بها، وهي تنزل في مدونة (عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ)

/!#/http://tafaregdroos.blogspot.com

تنبيهات هامة:

- منهجنا الكتاب والسنة على فهم السلف الصالح.
- هذه التفاريغ من اجتهاد الطالبات ولم تطلع عليه الأستاذة حفظها الله، أما الدروس المعتمدة من الأستاذة فهي موجودة في شبكة مسلمات قسم (شذرات من دروس الأستاذة أناهيد) /http://www.muslimat.net

- الكمال لله عز وجل، فكتابه هو الكتاب الوحيد الكامل السالم من الخطأ، فما ظهر لكم من صواب فمن الله وحده، وما ظهر لكم فيه من خطأ فمن أنفسنا والشيطان، ونستغفر الله..

والله الموفق لما يحب ويرضى.

الحمد لله رب العالمين والصلاة و السلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين هذا هو لقاؤنا الأول، نسأل الله عزّ وجلّ بمنّه وكرمه أن لا يحرمنا فضله بالاجتماع حول كتابه في هذا الشهر المبارك ، الذي من أعظم بركاته نزول القرآن و من أعظم بركاته اهتمام المسلمين بقراتي القرآن ومن أعظم البركات في هذا الشهر الكريم أن يعتني الناس بفهم كلام الله فيزدادوا إيمانًا، نسأل الله بمنّه وكرمه أن نكون من أهل الإيمان والتقوى وممن صام رمضان وقامه وقام لليلة القدر إيمانًا واحتسابًا اللهم آمين.

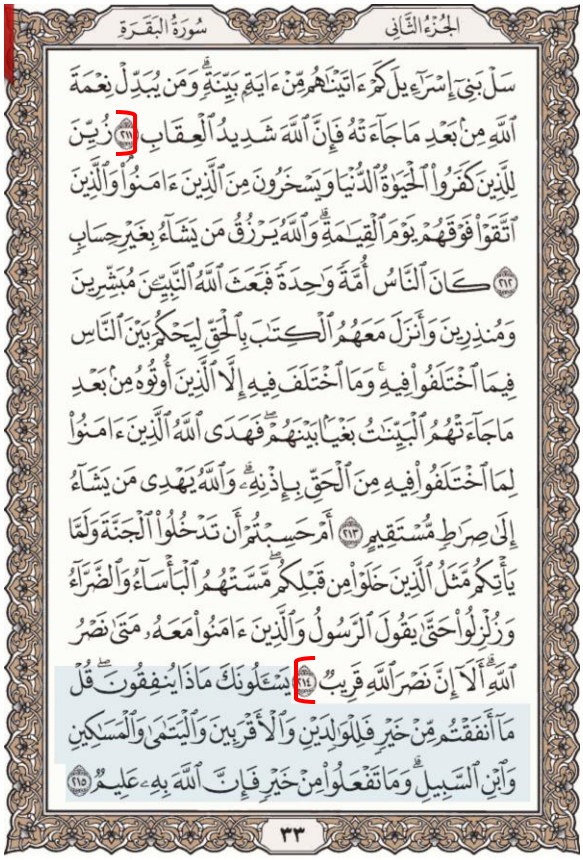

الجزء الثاني سورة البقرة

سل بني إسرائيل كم آتيناهم من آية بينة ومن يبدل نعمة
الله من بعد ما جاءته فإن الله شديد العقاب ﴿٢١١﴾ زين
للذين كفروا الحياة الدنيا ويسخرون من الذين آمنوا والذين
اتقوا فوقهم يوم القيامة والله يرزق من يشاء بغير حساب
﴿٢١٢﴾ كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين
ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس
فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد
ما جاءتهم البينات بغيا بينهم فهدى الله الذين آمنوا
لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء
إلى صراط مستقيم ﴿٢١٣﴾ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما
يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء
وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر
الله ألا إن نصر الله قريب ﴿٢١٤﴾ يسألونك ماذا ينفقون قل
ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين
وابن السبيل وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم ﴿٢١٥﴾

٣٣

نتدارس اليوم بإذن الله آيات من سورة البقرة تدور هذه الآيــات الـتـي سنقرأها حول مفهوم من أهم مفاهيم الإيمان وهو ركن الإيم.ان بالرسل، والحاجة العظيمة للخلق في هذه النعمة العظيمة، فالناس غاية في الحاجة لنعمة إرســـال الرسل، وسيتبين لنا إن شاء الله من خلال مناقشة هـذه الآيات شيء من هــذه الحاجة وعظيم نعمة الله عز وجل علينا بإرسال الرسل، تسبق الآية التي هــــي موضوع النقاش حول الرسل يسبقها قوله تعالى: {زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ الْـــحَــيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ اتَّقَواْ فَوْقَهُمْ يومَ الْقِيَامَةِ وَاللّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ} [البقرة : 212]

وهذه الآية فيها أخبار عظيمة أوجزت في هذه الكلمات التي هي من جوامع الكلم .

أما الجملة الأولى في الآية فهي قوله تعالى: {زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا}: فهذا أول الشأن أن الذين كفروا في حال يرثى لها وهذه الحال هي أن الدنيا قد تزينت في عيونهم وذاقوا حلاوتها بقلوبهم فأحبوا الدنيا العاجلة وكاثروا وفاخروا وطلبوا الرياسات وتباهوا واستكبروا ! فكان المقابل هذا الأمر منهم والناتج الطبيعي من ذلك أنهم يسخرون من الذين آمنوا، تزينت الدنيا في عيونهم فسخروا من الذين آمنوا، والمعنى أنهم رأوا أن إيمان المؤمنين وحرصهم على رضا رب العالمين واستعدادهم للقائه أمر يثير الـسخرية وكأنهم يرونَ أن هذه الدنيا ببهجتها تغنيهم عن الآخرة وما فيها من نعيم،

وهذا ماهو إلا من كفرهم بالآخرة. فهم من القوم الذين ألهاهم الشيء الحاضر عن الغائب الذي أتى به الخبر، أن العاقل صاحب الإيمان لابد أن لا يغتر بزينتها فيشهد جيفتها و يبصر قيمتها، لكن الحقيقة أن آفة الخلق انقطاعهم عن الحق، وهذا ما ستأتي الآية الثانية تبينه.

إذًا في مقدمة الأمر لابد أن نعرف أن من تزينت له الدنيا وأخذت قلبه لابد أنه يسخر من الذين آمنوا، لماذا؟ لأنه يرى أن العمل للآخر ة مثل الوهم! يراه لا يأتِ بشيء، لا يأتِ بشيء عنده هنا في الدنيا ، فلما حسنت في أعينهم وتهافتوا عليها رأوا المشتغلين بالطاعة وأمر الآخرة غير المتفتين إلى الدنيا ضعيفي العقول، فيسخرون ويضحكون ويستهزؤون، ويتبع الذين كفروا ضعفاء الإيمان في ذلك، ونحن نقرأ اليوم في كثير من الغثاء الذي يُقرأ أن الناس يتمدحون عن الشرق والغرب في تمسكهم في الحياة رغم تقدّم أعمارهم وأن المرأة منهم لا زالت تهتم بزينتها وعمرها في الثمانين ولا زالت تهتم بنشاطها وعمرها في كذا، والرجل مازال يفعل ويفعل من شؤون الدنيا وعمره كذا وكذا، ثم يسخرون من الذين آمنوا في انكبابهم على صلاتهم وطاعاتهم وعباداتهم، ويصورون هذا كأنه اكتئاب! وأنه عدم انفتاح للحياة ، وعدم تلذذ بها إلى آخر لحظة! وهذا ما هو إلا لأن القوم ما وزنوا بميزان الشرع ولا حكموا بحكم الله.

والجواب أتى في نفس الآية على هؤلاء الذين زين لهم الشيطان الحياة الدنيا وكان أثر ذلك أنهم سخروا من الذين آمنوا، فيقال: {والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة} فإنهم في الجنة والكفار في النار، وإنهم في السماء لأن الجنة مكانها في السماء، والكفار في النار في أسفل سافلين ، والذين اتقوا فوقهم لأنه لابد من رفعة أهل الإيمان ، ولذا يأتي في الأحاديث وصف الضعيف المستضعف بوصف العتل المستكبر وكيف أنهم يوم القيامة سيكونون في منزلتين مختلفتين، وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك بقوله: ((ألا أخبركم بأهل الجنة؟ كلّ ضعيف مستضعف لو أقسم على الله لأبرّه، ألا أخبركم بأهل النار؟ كلّ عتلّ، جواظ، مستكبر)) فالمعنى أنّ هؤلاء لابد أن يكونوا فوقهم يوم القيامة.

ثم ختم الآية سبحانه وتعالى بقوله : {وَاللّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ }. وهذا معنىً واسع نفهم منه أن الله سيرزق من يشاء بغير حساب هنا في الدنيا فيرزقهم ويوسع عليهم من حيث لا يحتسبون بعد ما كانوا مستضعفين هذا إذا كان يرزق المؤمنين بغير حساب؛ إذا كان في الدنيا يرزق المؤمنين بغير حساب يقويهم من حيث لا يحتسبون وممكن أن يكون اشتمل أن يكون أنه يوسع على بعض عباده الرزق فيفتتنون، وليست التوسعة دليل على رضا الله، وممكن أن يكون هذا في الكلام حول رفعة أهل الجنة فيرزق أهل الإيمان بغير حساب يوم القيامة، وهذه الصفة العظيمة لرب العالمين لابد

أن تكون على بال المؤمنين فإن الله من سعة ملكه يرزق بغير حساب؛ لأنه لا يحاسب على ما يرزق إلا من خاف النقص، في الحقيقة أن خزائن الله ملآى لا تنفذ، فربنا تبارك وتعالى لا تنفذ خزائنه ولا ينقص منه بعطائه لعبده فيحتاج إلى حساب ما يعطي وإحصاء ما يبقى بل إنه يرزق من يشاء بغير حساب.

يأتي سؤال: من الذي يحكم بين هؤلاء المتخاصمين؟ بين المؤمنين الذين يقطعون أعمارهم بطاعة الله ويلتفتون عن الدنيا وزينتها، وبين المفتونين بالدنيا الداعين إليها الجاعلينها نهاية الآمال، من الذي يحكم بينهم ويبين لهم الحق من الباطل؟

فتأتي الآية بعدها تصف أمرًا عظيمًا نحن في أمسّ الحاجة إليه وإلى الاستسلام له، استسلام يجلب الاجتماع ويدفع الافتراق فقال الله: {كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً} يعني على دين واحد، وهذا كما ورد عن ابن عباس أنه كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلها كانت على شريعة الحق فكان الناس أمة واحدة في التوحيد والعمل، يعني دينًا واحدًا مجتمعين عليه ، فماذا حدث؟ {فاختلفوا} وهناك قراءة لأُبي (لذا فاختلفوا) وتأويل الآية واضح أنهم فاختلفوا، فلما اختلفوا كيف عاملهم الله؟ {فَبَعَثَ اللّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ }، إذًا كان الناس كلهم على دين واحد على فكرة سوية مجتمعين على التوحيد، لم يفتنهم شيء، فلما طرأ عليهم الشك حصلت هذه الفتنة فاختلفوا.

{فَبَعَثَ اللّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ } وهذا ما نعتقده أن النبيين أتوا بعد اختلاف الناس من أجل أن يبشروا وينذروا، النبوة لا تنال بالكسب وإنما هي فضل الله لأن الله يقول {فَبَعَثَ اللّهُ} إذًا المبشرين والمنذرين وعلى ذلك أتوا بشرائع تنقسم إلى أوامر ونواهي، فتنذر الرسل عن وقوع المخالفة وتبشر إذا وقع الامتثال والطاعة.

هؤلاء الرسل الذين أتوا مبشرين ومنذرين {فَبَعَثَ اللّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ } أتوا ومعهم الكتاب {وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ} إنزال الكتاب إنما نزل بالحق {وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالحَقِّ} وهنا لابد أن يتصور أن هذا الكتاب وكل كتب الأنبياء التي نزلت من عند الله إنما نزلت بالحق فنزلت لأن الناس في حاجة، ونزلت ومعهم الحاجة التي يحتاجونها، فالحق الذي نزلت به الكتب ثابت لا يتغير، وليس فيه وجهات نظر، وليس فيه آراء ولا يتعدد ولا يتغير بتغير الزمن، ولا يقبل ما يدعيه البعض من تجديد قراءة النص ، بل قد نزل بالحق، والحق واحد لا يتعدد ، وإن كانت مفاهيم الناس له تتعدد لكن هو بنفسه واحد، من أجل أي شيء لهم؟ {لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ} إذًا الرسل لهم مهمة وهي البشارة والنذارة وتلاوة هذا الكتاب على الخلق فيستعملوه {لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ }؛ لأن الكتاب لن

يفعل هذا بنفسه إنما سيفعله الأنبياء ومن يقومون مقامهم، فالأنبياء هم البشر الذين اختارهم الله ليكلمهم فيسمعوا كلامه ويفهمهم فيفهموا مراده ، ويأمرهم فيمتثلوا، وينهاهم فينتهوا، ويكونون قدوة للخلق فيُتبعون ، ويكونون حاكمين على الخلق فيحكمون، ويكونون حجة الله على الخلق فليس للخلق حجةً بعد إرسال الرسل.

قال الله عز وجل : {لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ }، وهذا أمر لا يمكن لعاقل إنكاره فإن الناس قد اختلفوا وطال اختلافهم في قليل الأمر وكثيره فإننا نجد مثلًا في حياتنا اختلاف في فهم الحياة وفي الحكم على الحسن والقبيح واختلاف في قبول ما يحصل للعبد من أقدار، بل أحيانًا يكون هناك اختلاف حتى في اللغة، هل يصح أن نقول كذا أو لا يصح أن نقول كذا؟ فنجد كتاب الله حاكمًا ، يحكم على الخلق فيما اختلفوا فيه ، والذي يؤمن بالرسل ويؤمن بالكتب التي نزلت على الرسل هذا سيرضى ويسلم ، والذي في شك في إيمانه بالرسل أو في ضعف فإنه يصبّر عقله على ما جاءت به الرسل، ويحكّم هواه، ويرى ذلك من الفطنة والذكاء.

نحن الآن نسلّم أن الاختلاف موجود، لكنه غير مقبول ؛ لأن كل خلاف إذا حصلت فيه المحاكمة إلى كتاب الله الذي جاء به الأنبياء حصل الاجتماع ، إذًا معناه أن الاجتماع مقصد شرعي والخلاف إنما هو من البعد عن الكتاب، وهذا يتضح لما نقرأ بقية الآية، سنجد من الخبر عن وقت حصول الاختلاف، متى حصل الاختلاف؟

{وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ } هل هذا الوقت يتوقع أن الإنسان يحصل له خلاف؟ بمعنى بعد ما جاءت البينات ما هو المتوقع؟ المتوقع أن يحصل التسليم، البيان يلزمه التسليم لكن لما كان الهوى غالب على الناس فبدّلوا نعمة الله كفرا، كيف بدلوها؟ بأن أوقعوا الخلاف فيما أنزل لرفع الاختلاف.

وهنا غاية العجب، كيف ينزل الكتاب من أجل رفع الخلاف فهم يجعلون الكتاب الذي نزل لرفع الخلاف سببًا للخلاف! وهذا من بعد ما جاءتهم البينات يعني الدلائل العقلية والنقلية التي تثبت النبوة وتثبت الحق وتجعل الإنسان يسلم لرب العالمين ماذا كان المتوقع؟ حصول التسليم لكن هنا يظهر تزيين الدنيا في قلوب الخلق ليظهر أيضًا العناد، الكبر، ويمكن أن يكون الحسد أيضًا، والاستطالة على الحق.

هذه الآيات لو قرأتوها جيدًا سيتبين أنه في سياق الكلام عن بني إسرائيل أيضًا وعن حالتهم مع النبي صلى الله عليه وسلم كيف يرسل الرسل لبيان ما اختلفوا فيه من الحق فيجعل الناس ما نزل لرفع الخلاف هو سبب الخلاف هذا من الكبر من الحسد من الاستطالة على الحق وهذا كله بسبب ماذا؟

بسبب ما ذكر في الآية السابقة: محبة لما زين من الدنيا وتنافس عليها.

فقال لنا الله عز وجل: {وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ} يعني ما حصل الاختلاف فيه إلا بعد نزوله وبعد البيان فيه، هذا الذي حصل إنما حصل {بَغْيًا}، والبغي كما تعلمون إنما هو من أعمال الحسد ، يعني يكون الحسد في القلب يأتي البغي بالقول والعمل.

والمشكلة أن المسلمين اليوم لما يناقشون مسألة الحسد دائمًا يفكرون أنهم محسودين في نعم الدنيا كما يعبرون أصابتهم عين في نعم الدنيا وأنهم مصيبهم لهذه العين أكيد من الناس المحيطين بهم، وهنا يأخذنا العجب لما نأتي نقول : وكيف الغفلة عن كل كيد أهل الكفر وتشكيكهم في الدين وقيام المستشرقين بالهجوم على الدين وعلى الصحابة الكرام ؟ وكيف صنعوا في داخلنا مستغربين تميل قلوبهم إلى الكفر والضلال؟!

ويأخذوا هؤلاء الشباب في أرجلهم ليذهبوا بهم إلى الإلحاد ! كيف هي عقيدتك فيمن يطعن في أبي هريرة رضي الله عنه؟! أليس طعنه حسدًا في هذا الذي قد بسط رداءه فدعا له النبي صلى الله عليه وسلم فما نسي بعده ا أبدا! أليس الطعن في أحد مثل البخاري أو مثل الإمام أحمد أليس هذا حسدا؟!

المقصود أنّ البغي الذي هو أعمال الحسد بالقول والفعل إنما يصدر ممن يعرف الحق ولا يريد أن يستسلم له ويرى من قد استسلم له فيحسده ويحقد عليه. وهذا ما نعتقده كما أخبرنا ربنا ، فمن استسلم للرسل ولما جاءت به الرسل فهو المهتدي. ومن خالفهفهو الضال، وماذا يظن من الضال بالمهتدي إلا أن يحسده؟!

يقول الله عز وجل: {فَهَدَى اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ } وهذه منة عظيمة خاصة بمن آمن {فَهَدَى اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ} يعني هداهم لأي شيء؟ هداهم للحق.

كيف يقال {فَهَدَى اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ } المقصود فهدى الله الذين آمنوا للحق فيما اختلف فيه من كتاب الله.

الآية {فَهَدَى اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ } أكيد أنك لا تظن أن الله هداهم للاختلاف، إنما هدى الله الذين آمنوا للحق لما اختلف فيه، فلاحظوا أنه هدى الذين آمنوا يعني الذين دخلوا على هذا الدين بالاستسلام والرضا والقبول، هؤلاء هداهم الله، وعلى ذلك من كفر وأعرض ولم يسلم سيبقى في اختلافه ولن يعرف الحق، والمهم يا أهل الإسلام أن تكونوا أنتم مُقبلين على ما أتى به الرسل مؤمنين أن ما أتى به الرسل فضل من الله ونعمة يُشكر عليها سبحانه وتعالى؛ لأننا متى اختلفنا تحاكمنا إلى كتاب الله فعرفنا صحة هذا الفهم وصحة هذا الطريق، وهل هو مقبول أو مردود؟ فكان الأثر أننا اجتمعنا على كتاب الله.

وعلينا أيضًا أن لا نبالي بمن خالف، فإن مخالفته ليست ذا بال ، فإن هؤلاء القوم الذين خالفوا قالوا كما أخبر سبحانه وتعالى في سورة النساء: {وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ} [النساء:150]، وهؤلاء الذين خالفوا لا تعتنوا بهم؛ لأن الله عز وجل قال في وصفهم: {يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ عَن مواضعه} [المائدة:13] كيف يعني تثقون بهم لتحصلوا على رأيهم؟

على كل حال هؤلاء لما جاء الله عز وجل بالرسل وخاطب الرسول صلى الله عليه وسلم لما جاء ومعه البينات واضحةً دالةً على رسالته بسبب الظلم والحسد ردوا هذه الرسالة ، وسيبقى هذا شأنهم إلى أن تقوم الساعة ، لكن الله يهدي الذين آمنوا لما اختلف فيه، يهديهم إلى الحق فيما اختلف فيه. وهذا الحق سواءً كان في الاعتقادات أو الأعمال سيكون نتيجته أن أمتنا أمة واحدة.

وليُعْلَم أنّ الله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم . وهذا يجعل في القلب ثقةً ويقينًا أن من صدق في إرادة الحق دلّه الله، وجعل الكتاب له نورًا وشفاءً، ومن إلتوى وحسد وبغا لقوله وعمله فهذا لابد أن يكون مصروفًا عن الحق.

فالله أرسل الرسل نعمة عظيمة وأنزل معهم الكتب كانت نعمة وبركة لمن عرف حقيقة الحياة والاختبار فيها، فإذا أردت أن تنتفع بالرسول والكتاب فما عليك إلا أن تقبل عليهما مصدقًا متيقّنًا.

وليُعْلَم أنّ الله يهدي من يشاء وكما مرّ معنا كثيرًا مشيئته متعلقة بحكمته، فهو سبحانه وتعالى عليم حكيم. عليم بالذين آمنوا، وحكيم بطرق إيصالهم إلى الحق.

إذًا نتّفق أنّ الله يهدي الذين آمنوا بالأنبياء وسلّموا بهم ببركة هذا الإيمان يهديهم لما حصل فيهم من اختلاف من أهل الضلالة فيعرفون الحق، وهذا كله بإذنه، وقد مكّن الله الخلق بفطرتهم السوية أن يعرفوا الحق وهذا من إذنه سبحانه وتعالى، هذه الفطرة من إذن الله.

إذا عرفنا أن ببركة الإيمان الإنسان يصل إلى الحق يبقى شأن مهم علينا أن نفهمه، وقد أتى في الآية التي تليها:

قال تعالى: { أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ} المعنى أنّ الحق الذي نطلبه الله يرشد إليه، الحق الذي تطلبه الله يهدي إليه، لكن لا تظنّ أنّ الأمر يسير ولا تظنّ أنك تصل إليه دون أن تمسّك البأساء والضراء، بل لابد للرسل ولأتباعهم من بأساءٍ وضراءٍ تنالهم، الأمر ليس هيّنًا ولا يظنّ ظانّ أنّ السعادة تنال بلا اجتهاد، بل لابد من اجتهاد في العبادة ، واجتهاد في طلب الحق، واجتهاد في دفع الخوف من الخلق، واجتهاد في الحرص على رفع اللوم من الخلق؛ بمعنى أن لا تحرص على هذه الأشياء، اطلب الهداية من رب العالمين ولابد أن تجاهد لتصل للمنزلة العليا، فلا يظنّ ظانّ ولا يحسب من يحسب أن الأمر هيّن أن تنال السعادة بلا اجتهاد، فإن هذا يخالف ما هو مستقرّ في فطرنا، فالوصول إلى الأمر العظيم لابد أن يكون وراءه الجهد الكبير، فلا تظنّ أن تدخل الجنة التي هي نعيم دائم ولا يأتيك مثلما أتى الذين من قبلك ! بل كما مرّت عليهم أحوال وقضايا ستمر عليك ولن تجد لسنة الله تبديلًا، وكلما عرفت حالهم كلما زادك هذا استعدادًا وتوفيقًا.

لو عرفت حال من قبلنا كيف مسّتهم البأساء والضراء، المصائب أتتهم والضراء، سواءً كانت المصائب في أموالهم أو أنفسهم، سواءً كان هذا بفقر أو حرب، وكيف أنهم (زُلزلوا) يعني وقعت عليهم أمور تكاد تهدّ الأرض وتدكّ الجبال من عظمتها! بمعنى أنهم أُزعجوا بأنواع البلايا والرزايا والأهوال فكأنهم أصبحوا في حال تشبه الزلزلة، هذا لايرضى عنهم، هذا يلومهم، هذا ينتقدهم، هذا يدفعهم، هذا يقتلهم، هذا يحبسهم، كثير و قليل، فالناس يحصل لهم أحوال مختلفة لكن غايتها أنه مختبرون في إيمانهم {حتى يقول الرسول} وهو أثبت الناس {والذين آمنوا معه} وهم من أثبت الناس بعده بطول تمادي الزمان {متى نصر الله}؟ وهو لا يقصد هنا استبعاده ولا الشك في أن وعد الله حق، لكن كأنه يقال لنا أن هذا لابد أن يقع ويبلغ الأمر شدته وضيقه أن يقول هذا الرسول، وما يصل الأمر إلى هذا الحد إلا والفرج قريب.

وليُعْلَم أنّ أسباب الفرج تقترب كل ما انقطعت أسبابه، الله عزّ وجلّ يقرّب أسباب الفرج من الخلق بعد ما يشعروا أنها انقطعت من كل باب، ولذا الفرج مع الشدة، مع انقطاع الأسباب. هذا كله امتحان للقلوب بالتقوى فيصبرون

فتسمو أرواحهم وتقوى على مواجهة البلاء ، وهذا قد كان في سيرة نبينا صلى الله عليه وسلم كثير منه وكانت في سيرة الأنبياء ومن تبعهم.

وقد كان من كلام النبي صلى الله عليه وسلم ((لا إله إلا الله وحده ، أنجز وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده)) ولما تسمع هزم الأحزاب وحده تفهم أن الله هو ناصرهم بلا سبب ولا وسيلة، وكم حصلت من خوارق لعادات وكم حصلت من معجزات، لكن المقصود أنّ المؤمنين لا يظنّون أنّ الأمر يسير ! فليُعْلَم أنّ أهل الكفر لما يسخرون من الذين آمنوا أن هذه أحد الاختبارات العظيمة التي يمر بها أهل الإيمان، ولما يبقى أهل الكفر يعيّرون أهل الإيمان بأيّ أحوال حصلت أو بأي أوضاع تكون، فإنّ أهل الإيمان يتمسّكون بالحقّ ويعلمون أنّ نصر الله آتي مهما بَعُدَ ومهما رأينا قلّة أسبابه بل ربما انعدام أسبابه، فنقول هذا وقت نصر الله.

وليُعْلَم أنّ الأمر كلما اشتدّ دلّ على الفرج، فالليل يكون في أحلك أوقاته أقرب وقت للفجر، وهذه سنة الله الماضية، أنّ الضيق بعده الفرج لأهل الإيمان.

ومن العجائب التي نتيقّن بها أن في آخر الزمان ستُفتح قسطنطينية الروم بالتسبيح والتكبير! يعني يكبّرون ويسبّحون على هذا الحاجز العظيم الذي يحجزهم عن المسلمين ، سور لهم عظيم -كما في الحديث- يأتون إلى الجهة الأولى فيكبّرون فيسقط، ثم إلى الثانية فيكبّرون فيسقط، ثم إلى الثالثة فيكبّرون فيسقط! بلا سبب ولا وسيلة.

المعنى أنّ الله قادر على نصر ة الخلق بلا سبب ولا وسيلة، لكن لابد أن تُزلزل وتُصاب حتى تأتي الرفعة، رفعتك على الذين كفروا في الآخرة لن تكون بأنك كنت في الدنيا كنت في أيسر أمر، لابد من إقامة البينة على الإيمان ، فيأتي الاختبار فيأتي الصبر، لابد من امتحان كما امتحن الأمم الخالية والقرون الماضية، فهذا تدريب في مصاعب التأديب ، تتدرب حتى تصعد وتكون في أحسن حال.

لا تنسى {وَالَّذِينَ اتَّقَوْاْ فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ} كيف سيصبحوا فوقهم يوم القيامة؟ لن يصيروا فوقهم إلا بالتدريب في مصاعب التأديب، ونحن لا ننازع أبدًا حكمة ربنا، فإننا نرى كيف يخرج الإنسان من البلاء ! أقوى في الإيمان، وأعرف بالرحمن، وأكثر ذلًا وانكسارًا، وأكثر شعورًا بكمال الله وبحكمة الله ، وهذا مع عدم تمنّي البلاء ، فمن كان في عافية فقد عافاه الله، وأنواع البلاء شتى وكثيرة ، فمبتلى في بدنه، ومبتلى في نفسه، ومبتلى في أهله، ومبتلى في غير ذلك، فلابد من

هذا البلاء، ومن رأى ما كان عليه الأنبياء وكيف أنهم كانوا أشد الناس بلاء علم أن هذه سنة لا تتخلّف ، وأنه من أجل أن يصل أهل الإيمان والذين اتقوا يكونون فوقهم يوم القيامة لابد من وقوع مثل هذا البلاء.

على كل حال نحن في خلال هذا الشهر المبارك نتأمّل أن نستطيع من قراءة ما يتيسّر من سير الأنبياء من خلال كتاب الله، فنقف معهم وقفات ونرى عقيدتهم وإيمانهم وإخبارهم عن ربهم ونرى مواقفهم وصبرهم فنكون بذلك قد جمعنا بين أمرين:

١. بين فهم كلام الله فيما نقرؤه من كتاب الله.

٢. وبين بناء هذا الركن العظيم وهو ركن الإيمان بالرسل.

فهم خيرة الخلق الذين اصطفاهم الله واختارهم للرسالة ، وهم الذين أرسلهم الله رحمة بالعباد حيث أنه سبحانه لم يكل العباد إلى عقولهم ؛ لأنهم لو وكلت إلى عقولهم لفسدت السماوات والأرض، لكن أرسل الرسل مبشرين ومنذرين وحاكمين بما علمهم الله، فإذا أقيمت الحجة على الخلق اهتدى من اهتدى وضل من ضل.

فنحن نتعلم عنهم إن شاء الله فيما يتيسر لنا طيلة هذا الشهر راجين من الله أن يكون ذلك قربة له سبحانه وتعالى، ونكون ممن شهد يوم القيامة شهادة الحق مع الأنبياء والرسل مع نبينا الكريم صل الله عليه وسلم.

هذا ما تيسّر اليوم من الكلام حول هذه الآية العظيمة، نسأل بمنّه وكرمه أن يكون الإيمان هو الذي يزيد، والتقوى هي التي تظهر من وراء فهمنا لكلامه سبحانه وتعالى.

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.